"قديس عطور" يعرض معجزاته

"لكل شيء أوانٌ، ولكل أمر تحت السماء وقتٌ."

لم أمتلك حكمة النبي سليمان هذه لتواسيني، فتطلعت حولي، كما في كل رحلة قصيرة خارج المنزل، بحثاً عن معلمي المقدّر لي. ولكني لم أقابله إلا بعد تخرجي من المدرسة الثانوية.

انقضت سنتان منذ محاولتي الفرار مع آمار إلى الهملايا واليوم العظيم الذي بزغ به سري يوكتسوار في سماء حياتي. وخلال تلك الفترة التقيت العديد من الحكماء: قديس العطور، ناسك النمور، القديس السابح في الهواء، المعلم مهاساايا، ثم العالم البنغالي الذائع الصيت ج. ش. بوز.

وقبيل لقائي بقديس العطور حدث لي أمران: أحدهما توافقي والآخر فكاهي.

"الله بسيط وكل ما عداه معقّد، فلا تلتمس القيم المطلقة في عالم الطبيعة النسبي".

بلغت أذني هذه الكلمات الفلسفية بينما كنت أقف صامتا في المعبد... وإذ استدرت أبصرت رجلا مديد القامة كان رداؤه أو افتقاره إليه ينبئ بأنه ناسك متجول، فتبسمت شاكرا وقلت:

"لقد نفذتَ بالفعل إلى صميم أفكاري الحائرة! فاختلاط مظاهر الطبيعية اللطيفة والعنيفة قد حيّر عقول العديد من الحكماء والفهماء!" فأجاب:

"قلائل هم الذين يمتلكون القدرة على تفسير غموضها! فالخير والشر هما كلغز أبي الهول الذي تضعه الحياة أمام كل ذكاء. وإذ لا يحاول الناس العثور على الحل، يضحي غالبيتهم بحياتهم وينالون نفس القصاص الذي كان أيام مدينة طيبة Thebes. ولكن بين الحين والآخر يظهر هنا وهناك شخص يتحدى الفشل ولا يقر بالعجز فيقطف من الوهم الكوني حقيقة الوحدة التي لا تتجزأ."

قلت: "إنك تتكلم عن قناعة يا سيدي." فقال:

"منذ وقت بعيد مارست بأمانة فحصاً ذاتيا دقيقا. وهي طريقة حادة ومؤلمة للتوصل إلى الحكمة. ففحص الذات ومراقبة المرء لأفكاره دون هوادة هو اختبار محطم يزهق ويسحق الأنا والأنانية سحقا ويلحق بهما هزيمة مدوية. إلا أن التحليل الذاتي الصادق يعمل بدقة ويخلق الحكماء. أما طريقة "التعبير الذاتي" وإعجاب الشخص بنفسه فتأتينا بأنانيين يعتقدون أن لهم الحق كل الحق بتفسير الله والكون على هواهم."

كنت معجباً للغاية بهذا الطرح، فقلت: "لا شك أن الحق يتوارى أمام''أصالة`` كهذه نابعة من الصلف والكبرياء!" فقال:

"لا يستطيع الإنسان فهم الحقائق الخالدة ما لم يحرر ذاته من قيود التظاهر والإدعاء. فالعقل البشرى الملطخ بأوحال الدهور يعج بالأوهام الدنيوية التي تعافها النفس: أهواء وشهوات لا حصر لها، بحيث أن الكفاح في ساحات القتال لا يُذكر مقارنة بمواجهة الأعداء الباطنيين! فهؤلاء ليسوا خصوما عاديين يمكن قهرهم بالعدة والعتاد والألوية المدرعة! وبسبب وجودهم وإقلاقهم الدائمين، فإنهم يتعقبون الإنسان ويقضّون مضجعه حتى أثناء النوم. هؤلاء هم جنود شهوات الجهل الخبيثة المجهزون بأسلحة فتاكة، يعملون جاهدين على القضاء علينا. والإنسان الذي يطمر مثله العليا ويستسلم للمصير الجماعي هو غبي وطائش، بل هو عاجز، متحجر، وخامل وخانع."

وسألته: "ألا تتعاطف مع الجماهير الذاهلة الغافلة يا سيدي؟"

صمت الحكيم لبرهة قصيرة ثم أجاب بطريقة غير مباشرة:

"من المحيّر أحيانا أن تحب الله غير المنظور- مصدر كل خير ومكرمة - وتحب أيضاً الإنسان المنظور الذي يبدو مفتقراً تماماً إلى تلك المزايا النبيلة. غير أن البراعة كفيلة بحل المشكلة. فالبحث الباطني يكشف فورا عن وحدة البشر: وحدة الدوافع الذاتية على الأقل، فتبدو للعيان الإخوة الإنسانية. ومع هذا الاكتشاف المذل لنفس الإنسان يأتي تواضع محيّر يبلغ ذروته في انعطاف المرء على بني جنسه الذين يجهلون القوى الشافية للنفس التي في انتظار الفحص والتنقيب."

فقلت: "إن قديسي كل العصور قد أحسّوا بما تحسه يا سيدي بشأن أحزان ومآسي العالم."

لانَ وجه الناسك المتجهم بشكل ظاهر وقال:

"الإنسان السطحي التافه هو وحده الذي يفقد التعاطف والتفاعل مع أحزان الآخرين، في الوقت الذي يغرق في آلامه الشخصية الضيقة." واستطرد قائلا:

"إن من يستخدم مبضعاً لتشريح ذاته سيعرف أفقا فسيحا من التعاطف العالمي وسيحرز تحرراً من المطالب الذاتية التي تعمي بصره وتصم أذنيه (عن مساعدة الآخرين). إن حب الله يزهر ويثمر في تربة المواساة الطيبة، وفي النهاية يتجه المخلوق نحو خالقه، ولو لسبب واحد فقط وهو السؤال الملح: لماذا يا رب.. لماذا؟ وأخيرا تدفع لطمات وسياط الألم المريرة الإنسانَ باتجاه الوجود اللانهائي الذي ينبغي وحده أن يجذبه بجماله إليه."

كنت إذ ذاك موجودا مع الحكيم في أحد معابد كلكتا الذي ذهبت إليه لأشاهد جلاله المشهور، إلا أن رفيقي ضرب بعرض الحائط ذلك الجلال المنمق، قائلا:

"القرميد والملاط لا قدرة لهما على إسماعنا نغمات حية ومسموعة، فقلب الإنسان لا ينفتح ولا يتجاوب إلا مع أنشودة الوجود الإنساني".

سرنا نحو مدخل المعبد حيث ضوء الشمس الجذاب وجموع المتعبدين تسير جيئة وذهابا. وقد تفحصني القديس بإمعان ثم قال:

"إنك ما زلت فتيا، والهند كذلك حديثة العهد. والحكماء القدامى وضعوا أسساً ونماذجَ للحياة الروحية لا تقوى عليها يد الزمن. ولا تزال أقوالهم المأثورة تفي باحتياجات البشر الآن وفي كل البلدان. تلك الأسس والنماذج الخالدة لم ولن تفقد جدتها وفعاليتها وهي المحك الذي يبين زيف ووهمية المذهب المادي. فالقالب العام للهند، وعلى مدى آلاف السنين أثبت للزمن المتشكك قيمة ومقام الحكمة المقدسة، فاتخذها ميراثا وكنزا لك."

وإذ كنت أودّع باحترام كبير الناسك الفصيح البليغ، كشف لي بجلائه البصري عن حدث قادم، قال:

"اليوم بعد مغادرتك هذا المكان سوف يحدث لك اختبار غير عادي."

غادرت فناء المعبد ورحت أتجول هنا وهناك، وإذ سرت في منعطف التقيت بأحد المعارف القدامى وهو واحد من أولئك الشبان الذين يمتلكون قوة محادثة عجيبة تتجاهل الزمن وتعانق الأبدية. فوعدني قائلا: "سوف أتركك وشأنك بعد برهة قصيرة شرط أن تخبرني بكل ما حدث لك خلال سنوات افتراقنا."

فأجبته: "يا له من تناقض عجيب! يجب أن أتركك الآن."

إلا أنه أمسك بيدي وراح يستنطقني معلومات شائقة. وكان كالذئب الكاسر – كما بدا لي وأنا أبتسم – يزداد تنشقاً للأخبار كلما استرسلت في الحديث، فتضرعت في داخلي لله كي يدبر لي وسيلة معقولة للإفلات منه.

تركني صديقي فجأة فتنفست الصعداء وحثثت الخطى مخافة الوقوع ثانية في حمى الثرثرة. وإذ سمعت خلفي وقع أقدام سريعة ضاعفت سرعتي دون أن أجرؤ على النظر للخلف. لكن صاحبنا لحق بي بوثبة سريعة وأمسك كتفي بانبساط، قائلا:

"نسيت أن أخبرك عن غاندا بابا ("قديس العطور") الذي يبارك بحضوره ذلك المنزل."

ثم أومأ إلى مسكن على قيد خطوات وقال: "قابله فهو سيعجبك، وقد يحدث لك على يديه اختبار غير عادي. مع السلامة." ثم تركني وانصرف هذه المرة بالفعل.

وومضت في عقلي كلمات الناسك الحكيم المشابهة التي قالها لي في المعبد ، وبدافع الفضول دخلت المنزل حيث قادني أحدهم إلى صالة فسيحة كان يجلس فيها على الطريقة الشرقية جمع من الناس على بساط سميك برتقالي اللون. وقد سمعت همسة ملؤها الهيبة والخشوع: "أنظر فهذا هو غاندا بابا يتربع على جلد الفهد، ويستطيع إعطاء الأريج الطبيعي لأية وردة أو زهرة لا رائحة لها، مثلما يمكنه إنعاش الزهور الذابلة وجعل بشرة الشخص تفرز عبيراً طيباً."

تطلعت رأسا إلى القديس الذي التقت عيناه السريعة بعينيّ. كان بديناً، ملتحياً، ذا بشرة سمراء وعينين كبيرتين لامعتين، وقال:

"إنني سعيد برؤيتك يا بني. اطلب الذي تريده. على بالك بعض العطور؟"

بدت لي ملاحظته صبيانية، فأجبته:

"وما الفائدة من ذلك؟"

قال: "لكي تختبر الطريقة الرائعة والخارقة للتمتع بالعطور."

قلت: "تعني تسخير القوى الإلهية لصنع العطور؟"

أجاب: "لا بأس من ذلك، فالله يبدع الروائح الطيبة على أية حال."

قلت: "صحيح، ولكنه يخلق زجاجات واهية من أوراق الزهر والورد للاستعمال الوقتي، ثم تُطرح بعد ذلك. أتستطيع الإتيان بالورود والزهور إلى عالم المادة؟"

أجاب: "نعم، ولكني يا صديقي الصغير أخلق عطوراً بوجه عام."

قلت: "إذاً سيتوقف العمل والعمال في مصانع العطور."

أجاب: "لكني سأسمح للناس والمصانع بمداومة الأعمال! إن غايتي الوحيدة من ذلك هي إظهار قدرة الله."

فقلت: "سيدي، هل من الضروري البرهنة عن الله وقوّته؟ ألا يأتي بالمعجزات في كل شيء وفي كل مكان؟"

قال: "نعم. ولكن ينبغي لنا أيضا أن نظهر بعضا من تعبيراته الخلاقة اللامتناهية."

سألته: "وكم صرفت من الوقت لإتقان فنـّك هذا؟"

أجاب: "اثني عشر عاماً."

قلت: "لصنع العطور بالوسائل الأثيرية! يبدو لي يا قديسي العزيز أنك أضعت اثني عشر عاما دون طائل من أجل عطور تستطيع شراءها بمبلغ زهيد من بائع الزهور."

قال: "العطور تتلاشى مع الزهور."

فقلت: "والعطور تضمحل وتفنى بالموت. فلماذا أشتهي ما يرغبه الجسد فقط؟"

أجاب: "إنك تعجبني يا حضرة الفيلسوف! هات مد يدك اليمنى الآن." ثم أتى بإشارة تدل على منح البركة.

كنت على قيد خطوات منه، ولم يكن بقربي شخص يلامسني، ثم مددت يدي التي لم يلمسها اليوغي.

فقال: "ما هو عطرك المفضل؟"

قلت: "الورد."

قال: "فليكن ما تريد."

ولعظيم دهشتي فاحت رائحة الورد الذكية من وسط كفي. وبابتسامة أخذت زهرة بيضاء كبيرة عديمة الرائحة من مزهرية قريبة وقلت:

"هل يمكن لهذه الزهرة التي لا رائحة لها أن تتشبع بعطر الياسمين؟"

أجاب: "بكل تأكيد."

وتضوّع على الفور شذا الياسمين من أوراق الزهرة، فشكرت صانع المعجزات وجلست بجوار أحد تلاميذه الذي أخبرني أن "قديس العطور" قد تلقى العديد من أسرار اليوغا العجيبة في بلاد التبت من معلم عمره – بحسب ما أكد لي – أكثر من ألف عام. وقد واصل التلميذ حديثه بفخر واعتزاز عن معلمه، قال:

"لا يبرهن "القديس" عن براعته في خلق العطور بنفس الكيفية الواقعية البسيطة التي رأيتها الآن، بل يستعمل طرقا عديدة ومختلفة تلائم سائر الأمزجة. إنه بالفعل مدهش، وكثير من علماء كلكتا المستنيرين هم من أتباعه."

وصممت في نفسي على أنني لن أضيف إسمي إلى تلك القائمة. فإن معلماً مدهشا للغاية لا يروق لي. وغادرت المنزل بعد أن شكرت "قديس العطور" بأدب. وفي طريقي إلى البيت رحت أتأمل المقابلات الثلاث التي حصلت في ذلك اليوم.

قابلتني شقيقتي أوما حينما دخلت الباب فقالت:

"يبدو أنك أصبحت متأنقاً، تستعمل العطور على الموضة العصرية!"

وبدون أن أنطق بكلمة واحدة أومأتُ لها كي تشم يدي، فصاحت:

"يا لها من رائحة ورد جذّابة! إنها قوية بشكل غير عادي!"

ولكني اعتبرتها "غير اعتيادية بكيفية نادرة"، ووضعت بصمت تحت أنفها الزهرة البيضاء ذات العطر الأثيري، فقالت: "آه، ما أطيب رائحة الياسمين!" وأخذت الزهرة من يدي وارتسمت علامات الحيرة المضحكة على وجهها وهي تستنشق عبير الياسمين من نوع من الزهر تعلم جيدا أنه عديم الرائحة. وقد ساعد رد فعلها على تبديد الشك الذي ساورني من أن الرجل قد خلق بي حالة من الإيحاء الذاتي جعلتني أشم العطور دون غيري.

فيما بعد علمت من صديق لي أن قديس العطور كان يمتلك قوة تمنيت لو كانت في متناول ملايين الجياع في العالم.

وقد أخبرني الصديق قائلا:

"كنت حاضراً مع مئة من المدعوين في منزل "قديس العطور" بمناسبة أحد الأعياد. ولما كان معلوما أن اليوغي له القدرة على استحضار الأشياء من الهواء الشفاف، فقد طلبت منه ضاحكاً خلق ثمار اليوسفي (يوسف أفندي) في غير موسمها. وعلى الفور انتفخ الخبز الهندي الرقيق المستدير الذي كان موضوعا على الأطباق المصنوعة من ورق الموز، وأصبح كل رغيف يحتوي على ثمرة يوسفي مقشرة. وقد قضمت الثمر ببعض التوجس فوجدته لذيذا."

بعد سنوات أدركتُ بالمعرفة الباطنية الطريقة التي استخدمها غاندا بابا للقيام بهذه الخوارق. وللأسف أن هذه الوسيلة ما زالت غير متوفرة لحشود العالم الجائعة.

إن منبهات الحواس المختلفة التي يستجيب لها الإنسان عن طريق اللمس والنظر والذوق والسمع والشم تحدث نتيجة الفوارق الاهتزازية في الالكترونات والبروتونات. وهذه الاهتزازات تقوم بتنظيمها كهارب الحياة الشفافة (برانا)، أو القوى الأكثر شفافية من النشاط الذري، والمشحونة بكيفية واعية بالعناصر الحسية الخمسة المميزة للفكر.

وإذ تمكن غاندا بابا من توفيق ذاته مع القوة الكونية بواسطة تدريبات يوغية خاصة فقد استطاع توجيه إلكترونات الحياة لإعادة تنظيم تركيبها الاهتزازي للحصول على النتائج المرغوبة. فمعجزاته المتعلقة بالعطور والثمار وغيرها كانت تجسيدات فعلية وتجسيما لاهتزازات أرضية وليست إحساسات داخلية يحدثها التنويم المغناطيسي.

وقد استخدم الأطباء التنويم المغناطيسي في عملية جراحية بسيطة كنوع من المخدر النفسي في علاج الأشخاص الذين قد يعرّض المخدّر حياتهم للخطر. لكن التنويم المغناطيسي يسبب الضرر للذين يعتادون الخضوع له. فآثاره النفسية السلبية تضر بخلايا الدماغ. هذا النوع من التنويم هو انتهاك غير مشروع لوعي شخص آخر، ولا صلة لظواهره الوقتية بالمعجزات الفعلية التي يقوم بها رجال الله العارفون. القديسون الحقيقيون يحدثون تغييرات أكيدة في دنيا الأحلام هذه بقوة إرادتهم المتناغمة بدقة وإحكام مع إرادة الله.

ومثل هذه العجائب التي قام بها "قديس العطور" هي مثيرة ولكنها عديمة الجدوى روحياً. وبما أن فائدتها لا تتعدى التسلية فإنها تعتبر ابتعاداً عن البحث الجاد عن الله.

المعلمون العارفون يشجبون التباهي بامتلاك القوى الخارقة. وقد سخِر ذات مرة الصوفي الفارسي أبو سعيد من بعض الدراويش الذين كانوا يفخرون بقواهم المعجزة فوق الماء والهواء وفي رحب الفضاء، مشيراً إليهم في سخرية هادئة:

"والضفادع أيضا تعيش بغير عناء في الماء! والغراب والنسر يحلّقان بسهولة في الهواء، والشيطان موجود بالتساوي في مشارق الأرض ومغاربها! ولكن الرجل الأصيل هو الذي يحيا حياة البر والتقوى بين أبناء جنسه، ويشتري ويبيع دون أن يغفل لحظة واحدة عن ذكر الله!"

وفي مناسبة أخرى أعرب الحكيم الفارسي العظيم عن آرائه في الحياة الدينية قائلا:

"دعْ ما برأسِكَ جانباً   من طمعٍ أو اشتهاءْ
وكلَّ ما بينَ يـــــديكْ   وامنحْ بجودٍ وسخاءْ
واثبتْ لضربات الزمنْ   دون نكوصٍ للوراءْ"

ولكن لا الحكيم المنصف الذي قابلته في المعبد ولا اليوغي الحاصل على التدريب في بلاد التبت أشبعا شوقي لمعلم روحي. فقلبي لم يكن بحاجة لأحد كي يعترف بمكنوناته. ومع أن هذا القلب غالباً ما هتف استحسانا لتلك المعجزات، لكن ذلك الهتاف قلما صدر من أعماقه. وأخيرا عندما التقيت بمعلمي العظيم فقد علمني بسمو القدوة والمثال مقياس الرجولة الحقة.

المصدر: مذكرات يوغي – السيرة الذاتية ***Autobiography of a Yogi***
بقلم برمهنسا يوغانندا
ترجمة حديثة منقحة: محمود عباس مسعود